التوحيد (٢)

الدرس الثالث

الباب ١٨ :باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين وقول الله عز وجل: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ) (٦٤).

قال المؤلف رحمه الله:

وفي الصحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا). قال: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم، عبدت".

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

الشرح: فيه مسائل:

المسألة الأولى: قول ابن عباس رضي الله عنه ذكره البخاري في صحيحه.

المسألة الثانية: سميت الأصنام على أسماء رجال صالحين، وهي من خطوات الشيطان الأولى، حيث يأتي إلى العابد من خلال عبادته، فإذا تحقق الشرك فهذا مقصوده ؛ لأنه لا فرق بين التسميات مع الشرك.

المسألة الثالثة: أن أول الشرك وقع في قوم نوح، ولذا فنوح أول الرسل، كما في سياق القرآن حيث يرد ذكره في أول القصص، وفي إخبار الأنبياء من بعده.

المسألة الرابعة: خطوات الشيطان كما ذكرها ابن القيم عن بعض السلف، التعظيم ثم العكوف ثم التصوير ثم العبادة.

معهد العلوم الشرعية العالمي

المسألة الخامسة: أهمية العلم ورده إلى أهله، وأن الجهل إذا غلب أوقع في معاصي تصل إلى الشرك كما وقع في قوم نوح.

المسألة السادسة: مما يذكر أن العرب عثروا على الأصنام "أَمَّا وَدٌّ فَكَانَتْ لِكَلْبٍ بِدُومَةِ الجندل، وَأَمَّا سُوَاعٌ فَكَانَتْ لِهُذَيْلٍ زَادَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ وَكَانُوا بِقرب مَكَّة، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ، وروى الفاكهي من طَرِيق بن إِسْحَاقَ قَالَ كَانَتْ أَنْعَمَ مِنْ طَيِّئٍ وَجُرَشُ بْنُ مَذْحِجٍ اتَّخَذُوا يَغُوثَ لِجُرَشٍ، وَأما يعوق فَكَانَت لهمدان، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ اتَّخَذُوهُ بِأَرْضِ حِمْيَرَ"(١).

المسألة السابعة: "نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر. وهذا واضح في أن هذه البدعة لما ابتدعوها في دين الله جرتهم إلى الكفر وعبادة الشياطين وعبادة الأصنام، فصارت سبباً لترك الدين كله وليس بعضه، وهكذا البدع كلها؛ ولهذا يقول السلف: إن الشيطان يفرح بالبدعة أكثر من فرحه بالمعصية"(٢) .

قال المؤلف رحمه الله:

وعن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله" أخرجاه.

وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو".

الشرح: فيه مسائل:

المسألة الأولى: النصارى ادعوا أن عيسى ابن الله، قال تعالى: {وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٦٦٨/٨-٦٦٩)، بتصرف.
(٢) شرح فتح المجيد للعلامة الغنيمان (٢٢/٥٩).

ابْنُ اللهِ}التوبة٣٠. وقال سبحانه: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ }المائدة٧٢.

وادعاؤهم عيسى ابناً لله غلو، كما قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً }النساء١٧١.

المسألة الثانية: الغلو سبب لتعظيم المغلوّ فيه وإعطائه رتبة أعلى مما يستحق، ولذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الغلو فيه، فقال: "لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ".

والنصارى لما غلوا في عيسى عليه الصلاة والسلام جعلوه إلهاً مع الله.

المسألة الثالثة: الغلو في العبادة سبب للبدع وتبديل الشرع بالزيادة عليه؛ لأن المغالي لا يكتفي بكمال الشريعة بل يريد الزيادة عليها.

المسألة الرابعة: أشرف مقام للنبي صلى الله عليه وسلم العبودية والرسالة، قال سبحانه: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الإسراء١.

وهو وصف للأنبياء كلهم، قال جل وعز: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ }الصافات١٧١.

ولذا فأعظم كلمة هي كلمة التوحيد المشتملة على هذين الوصفين: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

المسألة الخامسة: الغلو سبب هلاك السابقين؛ لقوله: "إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو".

قال المؤلف رحمه الله:

ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "هلك المتنطعون" قالها ثلاثاً.

الشرح: المتنطعون "أَيِ الْمُتَعَمِّقُونَ الْغَالُونَ الْمُجَاوِزُونَ الْحُدُودَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ"(٣)

والتنطع، تشدد في الدين، والدين مبعثه اليسر، وقد ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ"(٤)

الباب ١٩ :باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده

عبادة الله تعالى عند القبور، من وسائل الشرك، وتفضي إلى تعظيم القبور ومن ثم عبادتها.

قال المؤلف رحمه الله:

في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٢٠/١٦).
(٤) رواه البخاري في صحيحه (١٦/١) برقم (٣٩).

كنيسة رأتها في أرض الحبشة وما فيها من الصور. فقال: "أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله" فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين، فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

الشرح: فيه مسائل:

المسألة الأولى: الكنيسة مكان عبادة النصارى، وفيها تصاوير يعظمونها.

المسألة الثانية: تحريم تعليق الصور؛ لأن فيه تعظيماً لها، ومشابهة لعبادها، ومن يعلق الصور لمجرد الذكرى فيه شبه منهم.

المسألة الثالثة: قوله "أولئك شرار الخلق عند الله"، فيه دليل على تحريم بناء المساجد على القبور.

قال المؤلف رحمه الله:

ولهما عنها قالت: لما نُزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال ـ وهو كذلك ـ : "لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً، [أخرجاه].

الشرح: فيه مسائل:

المسألة الأولى: " لمانُزل"، في آخر حياته عليه الصلاة والسلام، تحذيراً لأمته أن تصنع في قبره ما صنعه اليهود والنصارى.

المسألة الثانية: اتخاذ القبور مساجد من كبائر الذنوب، ولذا عبر عنه صلى الله عليه وسلم باللعن، وكل نص اشتمل على لعن فهو كبيرة من كبائر الذنوب.

المسألة الثالثة: لم يبرز قبره صلى الله عليه وسلم ولم يتخذ مسجداً، وهذا من استجابة الله تعالى لدعاء نبيه صلى الله عليه وسلم، فقد ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم–: "اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً، لَعَنَ الله قَوْماً اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ" رواه أحمد وهو صحيح.

قال المؤلف رحمه الله:

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول: "إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك".

الشرح: فيه مسائل:

المسألة الأولى: الخلة أعلى درجات المحبة، والله تعالى اتخذ نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، قال سبحانه: {وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}النساء١٢٥.

وثبت عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ النَّجْرَانِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي جُنْدَبٌ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: "إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»"رواه مسلم.

المسألة الثانية: يحرم بناء المساجد على القبور؛ لحديث جندب السابق وغيره، في تحريم اتخاذ القبور مساجد.

قال المؤلف رحمه الله:

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله، والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجد، وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجداً، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً". ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : "إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد" [رواه أبو حاتم في صحيحه].

الشرح: فيه مسائل:

المسألة الأولى: لا ينطبق على مسجد النبي صلى الله عليه وسلم النهيُ الوارد من اتخاذ القبور مساجد، فإن القبر والمسجد لم يبن أحدهما على الآخر.

وقد دفن عليه الصلاة والسلام في حجرة عائشة، والمسجد قائم يصلى فيه، ثم أدخله الوليد بن عبد الملك في المسجد لما وسعه، وهذا لاشك أنه خطأ، لكن لا يشبه بناء المساجد على القبور.

المسألة الثانية: يحرم الصلاة في المقابر، لما سبق من الأدلة

الباب ٢٠ :باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

قال المؤلف رحمه الله:

روى مالك في (الموطأ): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى}قال: كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره، وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج.

الشرح:

قوله : " اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ"، سبق الكلام عليها.

قوله: "اللَّاتَ": مؤنثة من لفظ "الله" تعالى الله عما يقولون، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ: {اللَّاتَ وَالعُزَّى} [النجم: ١٩] "كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلُتُّ سَوِيقَ الحَاجِّ" رواه البخاري.

وأصبحت اللات بعد ذلك "صَخْرَةً بَيْضَاءَ مَنْقُوشَةً، وَعَلَيْهَا بَيْتٌ بِالطَّائِفِ لَهُ أَسْتَارٌ وسَدَنة، وَحَوْلَهُ فِنَاءٌ مُعَظَّمٌ عِنْدَ أَهْلِ الطَّائِفِ، وَهُمْ ثَقِيفٌ وَمَنْ تَابَعَهَا، يَفْتَخِرُونَ بِهَا عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ بَعْدَ قُرَيْشٌ"(٥).

---

(٥) تفسير ابن كثير (٤٥٥/٧).

قوله: "وَالْعُزَّى": مشتقة من العزيز "كَانَتْ شَجَرَةً عَلَيْهَا بِنَاءٌ وَأَسْتَارٌ بِنَخْلَةَ، وَهِيَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، كَانَتْ قُرَيْشٌ يعظمونها، كما قَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ: لَنَا الْعُزَّى وَلَا عزَّى لَكُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ"(٦).

وسوف تعبد اللات والعزى في آخر الزمان، كما ثبت عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى" فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٣] أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا قَالَ "إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ" رواه مسلم.

وما يحدث في كثير من بلاد المسلمين، مثال جلي لعبادة القبور وتعظيم أصحابها، والقبور منتشرة يتقربون إليها ويدعون أصحابها، ويذبحون عندهم النذور والقرابين.

قال المؤلف رحمه الله:

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج. رواه أهل السنن.

الشرح: قوله: "وَالسُّرُجَ"، يعني إسراج المقابر، وهو محرم، قال ابن القيم: "وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها. وهو من الكبائر"(٧).

---

(٦) تفسير ابن كثير (٧/٤٥٥-٤٥٦).
(٧) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/١٩٧).